الدكتور عبد الرحيم الرحموني

الخطابة العربية الإسلامية

دراسة في المتن والفن

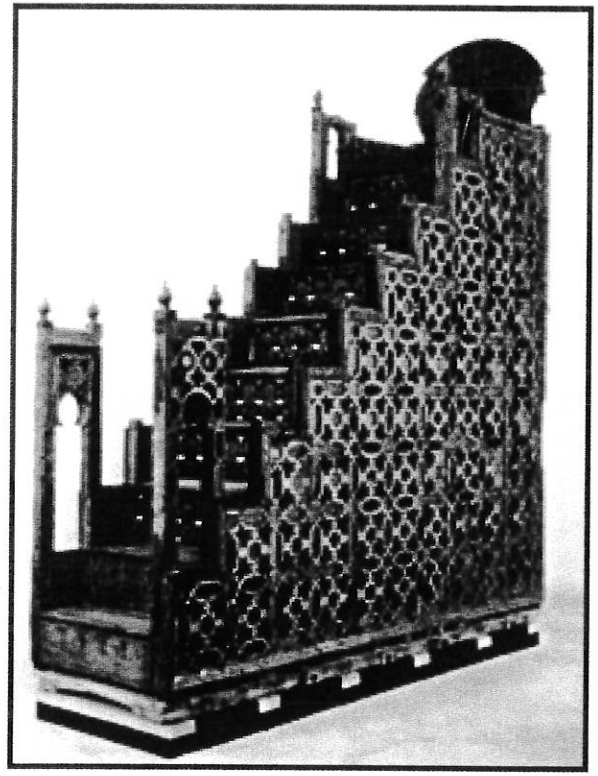

للخطابة، حتى ليبدو أن البت في أي أمر، مهما كان، جليلا أو حقيرا، لايتم إلا عن طريق الخطابة. ولا شك أن هذا الازدهار سيرقى أكثر مع مجيء العصر الأموي الذي عرف تطورات سياسية، بظهور عدة فرق، كل فرقة تدافع عن رأيها وتنشر مبادئها عن طريق الخطابة أو الشعر.

الفصل الثالث

الـمتن الخطابـي الإسلامـي ومجال موضوعاته

ليس قصدنا من هذا الباب أن نتطرق لمضامين الخطابة الإسلامية أو موضوعاتها بشكل مدرسي، ولكن نريد أن نبين مكانة الخطابة وأهميتها في التاريخ الإسلامي من خلال الموضوعات التي خاض فيها الخطباء، وهي تظهر بشكل واضح أن للخطابة أهمية كبرى في إقناع الجماهير وتوجيههم نحو ما يريده الخطيب من أمور وقضايا .

ولعله قد بدا واضحا من خلال بعض ما سبق، وخاصة قول ابن وهب، أن الخطابة يمكن أن توظف في موضوعات ومقامات متعددة تبعا للحاجة فقد تستعمل -كما قال- في إصلاح ذات البين أو في عقد الإملاك فتندرج في إطار الاجتماع، وقد تستعمل في التشييد للملك والتأكيد للعهد، فتندرج ضمن الإطار السياسي، وقد تستعمل في الدعاء إلى الله عز وجل فتندرج ضمن خطب الدعوة أو التشريع أو العقيدة، أو ما يصطلح عليه في العصر الحاضر بالخطب الدينية، علما بأن الإسلام لا يفرق بين ما هو ديني وما هو دنيوي، فالكل ينظمه الدين، لا فرق في ذلك بين العبادات وبين المعاملات، ولا بين السياسة وبين الاجتماع، ولا بين الصلح والحرب. ولهذا وجدنا خطبا تجمع بين موضوعات شتى، تبعا للمقام كخطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع، حيث إن المقام دفعه ﷺ إلى تناول عدد من الموضوعات، (الربا – قتل النفس – الشرك بالله – معاملة النساء إلخ). ومع ذلك يمكن أن نقول: إن الخطابة وظفت في عدة مجالات، منها: المجال الديني، والمجال السياسي، والمجال الاجتماعي.

1 ـ المجال الديني

لعله مما لا شك فيه أن الخطباء، منذ العصور الأولى للإسلام، وظفوا الخطابة بشكل واسع في المجال الديني، إذ أنها كما سبق أن رأينا عند العسكري: "لها الحظ الأوفر من أمر الدين لأن الخطبة شطر الصلاة التي هي عماد الدين في الأعياد

لجمعات والجماعات، وتشتمل على ذكر المواعظ التي يجب أن يتعهد بها الإمام يته لئلا تدرس من قلوبهم آثار ما أنزل الله عز وجل من ذلك في كتابـــه" [1].
لك نجد الخطباء المسلمين قد وظفوا الخطابة في مجالات دينية عديدة منها:

أ- مجال الدعوة إلى الله

إن المتتبع لنصوص الخطابة الإسلامية يجد العديد من الخطب التي لها علاقة دعوة إلى الله تعالى وتوحيده وبيان شرائعه من أوامر ونواه، في السلم والحرب معا، اعتماد الحجة المناسبة للمقام .

فلو نظرنا مثلا إلى الخطب الأولى التي خاطب بها الرسول ﷺ قومه لدعوتهم إلى حيد الله تعالى، فإننا سنجد نمطا خاصا من الأسلوب والحجج والبراهين، نظرا لحال خاطب الذي يُطلب منه تغيير معتقده. ومن المعلوم أنه ليس من السهل تغيير عقيدة اس، إذ لابد من حجج تثبت للمتلقي مزايا المعتقد الجديد، ونقائص المعتقد القديم. سمُو العقيدة الإسلامية ومبادئها وشرائعها، نجد القرآن الكريم يوجه المسلمين إلى م سبِّ عقيدة غير المسلمين وعدم جدال أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، قال الـــى: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدْواً بغير علـم﴾، وقال جل كره: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾. ولذلك نجد الرسول ﷺ في طبته الأولى التي خاطب بها مشركي مكة، لم يتحدث عن الأوثان ولا عن عقيدة شرك، ولكن كان يحاول إقناعهم أولا بالإيمان بالغيب الذي يتجلى أساسا في الإيمان حدانية الله والوحي وفي الحساب والعقاب يوم القيامة، معتمدا في ذلك على ما بطه ﷺ بقومه من وشائج القرابة ومتانة الثقة وعظم الأمانة بقومه، فلقد كان فيهم

الصناعتين ص

مصدَّقا مجرَّبا في ذلك، لم يسبق أن ضبطوا عليه كذبة واحدة، حتى في صغار الأمور. ولذلك فإنه حينما أُمر بالجهر بالدعوة، قال في خطبة له بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم، والله لو غررت الناس جميعا ما غررتكم، والله الذي لا إلـــه إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانا، وبالسوء سوءا، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا".

وجاء في خطبة له في مقام مماثل بعد حمد الله والثناء عليه: "أرأيتم لو أخبرتكم أن بالوادي خيلا تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا :نعم ما جربنا عليك كذبا قط. قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب أليم ..."[1].

فالمتأمل لهذين النصين يجد أنهما، على بساطتهما، يتضمنان حججا بليغة، فلقد اعتمد الرسول ﷺ أولا على وشائج القربى والثقة التي تربطه بقومه، فبين أن الرائد لا يمكن أن يكذب أهله وقومه مهما كان الأمر. وحتى لو قدر لرائد ما أن يكذب أهله لسبب من الأسباب فإن الرسول ﷺ لا يمكن أن يكون كذلك، لأنه نبي، ولأن القوم قومه الأقربون، ولأنه أُرسل إليهم خاصة، ولأنهم عرفوه خلال أربعة عقود من الزمن فلم يجربوا عليه كذبا قط، كما صرحوا بذلك هم أنفسهم. كما اعتمد ﷺ بعد ذلك على المقارنة بين الواقع الدنيوي المعيش وبين ما هو متوقع : النوم = الموت / اليقظة = البعث / الإحسان في الدنيا = الإحسان في الآخرة / السوء في الدنيا = السوء في الآخرة. ثم عزز هذا كله، من الناحية الأسلوبية بأدوات التوكيد: القسم، إن، نون التوكيد، مع اعتماد الازدواج الذي أحدث إيقاعا لطيفا في النص. ومن المعلوم أن هذه الجوانب كلها تعتبر من وسائل الإقناع، كما سنرى لاحقا. هذا مع ملاحظة

[1] تاريخ الطبري 2/ 319. وانظر أنساب الأشراف للبلاذري 1/ 119- 120.

ملمح إقناعي آخر لطيف جدا، وهو أنه ﷺ أثناء قسمه أورد كلمة التوحيد: "والله الذي لا إله إلا هو"، وهي عبارة توسطت الخطبة، مما يعني أن الرسول ﷺ لم يكن يريد أن يقرع بهذه الكلمة آذانهم، مباشرة، من أول وهلة، كما أنه لم يكن يريد أن يصارحهم بها مصارحة مكشوفة، ولذلك أسمعهم إياها بطريقة غير مباشرة، لأن الخطبة أول خطاب يجاهرهم به، ولذا كان همه الأول هو إقناعهم بأنه نبي مرسل من عند الله، وإذا سلموا بذلك سلموا بوحدانية الله، وإذا سلموا بوحدانية الله سلموا بشرائعه .

ولم تكن خطب الدعوة إلى الله مقصورة على النبي ﷺ، أو على القرشيين، أو حتى على من تكلم بلسان العرب فقط، بل على العكس من ذلك، كان هذا النمط من الخطب سائدا على امتداد التاريخ الإسلامي، حتى في مخاطبة العجم. فلقد روي عن ربعي بن عامر أنه لما طلب منه رستم قائد جيش الفرس: ماالذي جاء بكم ؟ فقال: " جئنا لنخرج من شاء من عبادة الأوثان إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن ظلم الأديان إلى عدل الإسلام".

ب ـ مجال الوعظ

تشير آيات قرآنية وعدد من الأحاديث النبوية إلى أن إيمان المسلم يحتاج إلى تجديد بالذكر والتذكير، من ذلك قوله تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المومنين. .﴾، وقوله جل ذكره: ﴿وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا﴾، كما جاء في بعض الأثر أن الرسول ﷺ كان يتعهد أصحابه بالموعظة، لذا كانت الخطب الوعظية أكثر أنواع الخطب شيوعا. وواضح أنها تهدف إلى تبصير الناس بشؤون دينهم، وحثهم على تقوى الله وطاعته والتفكير في الموت وما ينتظر الناس في الآخرة

من حساب وعقاب. ومن نماذج ذلك خطبة علي بن أبي طالب ﷺ التي جاء فيها : "أما بعد فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع. وإن المضمار اليوم والسباق غدا، ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل، فمن أخلص في أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ولم يضُرُرْه أمله، ومن قصَّرَ في أيام أمله قبل حضور أجله، فقد خسر عمله وضره أمله. ألا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون لـــه في الرهبة، ألا وإني لـــم أر كالجنة نـــام طالبها، ولا كالنار نام هاربها..."[1].

وعلى هذا الأساس شكلت الخطب الوعظية العمود الفقري للخطابة الإسلامية بصفة عامة حيث إن الوعظ كان حاضرا في جميع موضوعات الخطابة على اختلاف أنواعها واتجاهاتها، فلقد كان هناك خطباء وعاظ كبار، سياسيون وقادة حرب، ومؤبنون ومعزون، كما كان هناك خطباء اقترنت أسماؤهم بالوعظ في كل مجال، بما في ذلك وعْظ الحكام والسلاطين، كالحسن البصري الذي كان خطيبا مصقعا، ولقد اشتهر بمواقفه الجريئة مع الحجاج، وبقوة تأثيره في السامعين، حتى إن أهل البصرة كلما حزبهم أمر توجهوا إليه لكي يعالج هذا الأمر في خطبة من خطبه[2].

---

[1] البيان والتبيين للجاحظ 1 / 52

[2] مما يروى في هذا الباب أن عبيد البصرة اشتكوا يوما إلى الحسن سوء معاملة الأسياد لهم، ومرت أسابيع دون أن يتعرض الحسن للموضوع في خطبه، إلى أن جاء يوم تناول فيه الموضوع، وفصل القول، فلم يبق شخص حضر الخطبة وعنده عبد او أمة إلا أعتقه. فجاءه عبيد البصرة بعد ذلك يعاتبونه على التأخير في تناول الموضوع، وقد عانوا ما عانوه خلال تلك الأسابيع، فأجابهم بأنه لم يكن لديه عبد او أمة في بيته، ولم يكن لديه مال يشتري به عبدا، فاشتغل طوال تلك الفترة ليجمع ما يشتري به عبدا، فلما تمكن من ذلك، خطب في الناس في الموضوع. والقصة لها دلالة أخرى، كما سنرى لاحقا، وهي القدوة.

ومن الطريف أن يلاحظ المتتبع لنصوص الخطابة الإسلامية أن وعظ الناس لم قاصرا على التقاة والزهاد والعباد، بل إن الخطباء الذين لبسوا رداء الوعظ بمن فيهم القادة السياسيون الذين عرفوا بالبطش والظلم، وفي مقدمتهم الحجاج أثرت عنه خطب وعظية يصعب نسبتها إليه لولا تواتر الروايات في ذلك. ومما عنـــه في هذا الباب، ما رواه مالك بن دينـــار حين قال: (غدوت إلى الجمعة، ت قريبا من المنبر، فصعد الحجاج المنبر، ثم قال: "رحم الله امرأً نقد عمله، امرأ ب نفسه، امرأ فكر فيما يقرأه في صحيفته ويراه في ميزانه، امرأ كان عند قلبه وعند همه ذاكرا، امرأ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام جمله، فإن قاده اعة الله تبعه، وإن قاده إلى معصية الله كفه". فلم يزل يقول: امرؤ كذا، امرؤ كذا حتى بكيت"[1].

والواقع أن الحجَّاج كان بارعا في خطبه كلها، بما في ذلك الخطب الدينية، التي بعضها غاية في البلاغة. "قال الشعبي: سمعت الحجاج يتكلم بكلام ما سبقه إليه سمعته يقول: إن الله عز وجل كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلا ا كتب عليه البقاء، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء. فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن الآخرة. قصروا طول الأمل بطول الأجل"[2].

وليس هذا بغريب عن الحجاج الذي كان خطيبا لسنا، مالكا لأساليب الإقناع بأحوال السامعين، مدركا للطرق التي يمكن أن تأخذ بألباب المخاطبين[3]. وبما

ن 2 / 173 وصناعة الكتاب ص 261.

اعة الكتاب 261.

ذلك ما روي عنه أنه حينما قدم العراق واليا عليه، دخل مسجد البصرة وصعد المنبر وهو معتم غطى بها أكثر وجهه، وجلس ساعة لا يتكلم، حتى بدأ الناس يتحدثون فيه، فلما رأى عيون الناس إليه، كشف اللثام عن وجهه، وتمثل بالبيت المشهور :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا // متى أضع العمامة تعرفوني

أنه كان أميرا على العراق خطيبا لجُمَعها، فليس من الغريب أن يعظ الناس على المنبر، يأمرهم بالخير، حتى وإن كان شريرا في ذاته، ولعله لهذا السبب قال عنه الحسن البصري: "ألا تعجبون من هذا الفاجر، يرقى عتبات المنبر فيتكلم كلام الأنبياء، ويزل فيفتك فتك الجبارين يوافق الله في قوله ويخالفه في فعله". وقال فيه مرة أخرى: "...ثم رقي هذه الأعواد، ينظر إلينا بالتصغير، وننظر إليه بالتعظيم، يأمرنا بالمعروف ويجتنبه، وينهانا عن المنكر ويرتكبه"[1].

لكن فعل الحجاج ومن ماثله لا يمكن أن ينتقص من قيمة الخطب الوعظية، ولا يمكن أن يدل على أن هذه الخطب قد فقدت قيمتها، بل على العكس من ذلك، فقول الحجاج المخالف لفعله صفة كثيرا ما لازمت الجبابرة الظالمين. ولقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: "سيكون عليكم أمراء، يأمرونكم بما لا يفعلون، فمن صدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني، ولست منه، ولن يرد علي الحوض"[2]. كما روى الحسن البصري - وهو الخطيب الفاعل لما يقول- عن النبي ﷺ أنه قال: "سيكون بعدي أمراء يعطون الحكمة على منابرهم وقلوبهم أنتنُ من الجيف"[3].

ومما يدل على قيمة الخطابة الوعظية، ما شرعه الإسلام في هذا الباب، في أيام الجمع والأعياد، والمناسبات الكونية (الكسوف - الخسوف - الاستسقاء إلخ)،

=ومما يذكر عنه أيضا أنه ذات مرة، وهو يخطب، نقض الوضوء، فلم يرد أن ينزل ليتوضأ من جديد حتى لا تسقط مهابته من بين الناس، ولم يرد أن يستمر في إلقاء الخطبة دون وضوء ، فحول موضوع الخطبة إلى الحديث عن فرائض الوضوء وسننه، ولم يلبث أن قال: ولكن ليس الحديث كالعيان، هات الطست ياغلام. ثم شرع في الوضوء، موهما الناس أنه يتحدث عن الوضوء، بينما هو يتوضأ من جديد .

[1] صناعة الكتاب، 1/ 155.

[2] أخرجه الإمام أحمد، حديث رقم 5444.

[3] البيان 2 / 173. ولم أقف على الحديث بهذه الصيغة فيما رجعت إليه من كتب الحديث.

وما شرع فيها من خطب، وما ورد فيها من نصوص توجيهية، تدل على أهمية هذا المجال الخطابي .

وبما أن الوعظ يشمل جميع جوانب الحياة فقد كان الخطيب الواعظ يتطرق إلى كل الموضوعات، حسب ما يتطلبه المقام، حتى ولو كان المقام مقاما حربيا، الذي قد يقتضي هو الآخر تذكير الناس بشريعة الله وأوامره ونواهيه، في الموضوع. ومن الخطب الوعظية التي خوطبت بها الجيوش الغازية، خطبة أبي بكر ﷺ التي أوصى بها أسامة وجيشه لما سيره إلى الشام، حيث قال: "إذا سرت فلا تضيق على نفسك، ولا على أصحابك في مسيرك، ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك، وشاورهم في الأمر، واستعمل العدل، وباعد عنك الظلم والجور... وإذا لقيتم القوم فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير. وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولدا ولا شيخا ولا امرأة... ولا تقعروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة، ولا تغدروا إذا عاهدتم، ولا تنقضوا إذا صالحتم..."[1].

كما أن الخطبة الوعظية قد تكون مقصورة على فرد واحد من المستمعين، وهي في هذه الحالة، حتى وإن كانت تدخل ضمن الوصية، فإنها باعتمادها الحجة، وتوخيها الإقناع، تندرج بسهولة ضمن الخطابة، ومن نماذج هذا النوع، وصية عبد الله بن الحسن بن الحسن لابنه قائلا: "أي بني إني مؤد إليك حق الله في تأديبك، فأد

[1] فتوح الشام 1 / 8

إلى حق الله في حسن الاستماع، أي بني، كف الأذى، وارفض البذا واستعن على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك نفسك فيها إلى القول ..."[1].

2 ـ المجال السياسي

مر بنا سابقا قول العسكري وهو يعرف الخطابة قائلا: "ومما يعرف أيضا عن الخطابة والكتابة أنهما مختصتان بأمر الدين والسلطان وعليهما مدار الدار"، وهذا يعني أن الخطابة لها دور سياسي خطير، إذ باستطاعة الخطباء أن يوطدوا دعائم سياسية معينة كما باستطاعتهم أن يعلنوها ثورة جامحة. ولذلك وجدنا العديد من النصوص الخطابية، على امتداد التاريخ الإسلامي، التي تتحدث عن حقوق الراعي وواجباته على الرعية، وواجبات الرعية وحقوقها على الراعي، بالإضافة إلى شؤون السلم والحرب .

وبما أن السياسة لا تنفصل عن الدين في نظر الإسلام، فإن ولادة الخطب السياسية بدأت مع فجر الدعوة الإسلامية، ولذلك وجدنا خطبا عديدة للرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، ترتبط بمجال السياسة ، وخاصة تلك الخطب التي كانت تلقى في مناسبات لها ارتباط بتسيير شؤون الرعية، كالتشاور في القضايا التي تهم أمور المسلمين في السلم أو الحرب، أو تولي الخلافة والولاية ونحو ذلك. ولقد كان لبعض الخطباء دور كبير في تغيير المسار السياسي للدولة برمتها، أو للأشخاص، على الأقل. ويكفي أن نذكر عمران بن عصام العنزي، الخطيب الشاعر، "الذي أشار على عبد الملك خلع عبد العزيز أخيه، والبيعة للوليد بن عبد الملك، في خطبته المشهورة، وقصيدته المذكورة"[2].

[1] البيان 1 / 232

[2] المصدر السابق 1/ 48.

ولا شك أن مقتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ كان مستهلا لكثير من اضطرابات الداخلية، اتصلت في غالبها بقضية الإمامة، الأمر الذي دفع الخطابة سياسية نحو الازدهار، وخاصة في العصر الأموي الذي نعته بعض الدارسين المحدثين عصر الذهبي للخطابة السياسية. ويمكن إبراز اتجاهات هذا النوع الخطابي من خلال ة مجالات أهمها :

أ- مجال الإمامة ومقتضياتها :

من المعلوم أن الخلافة، أو الإمامة، أمر شرعي، إذ أنها في أصلها خلافة للنبوة، إمامة للمسلمين، واستمرار لتطبيق شرع الله، ورمز لوحدة المسلمين وقوتهم. وتبعا لك، فللخليفة حقوق وواجبات تجاه رعيته، كما أن للرعية حقوقا وواجبات تجاه راعي. ولذلك فإن الخطباء، في هذا المجال، كانوا يحاولون تثبيت هذه المفاهيم، نشرها بين الناس وإقناعهم بها، كل حسب اجتهاده وفهمه لأمور الخلافة.

وحتى في العصر الأموي الذي عرف بظهور فرق كان لها وزنها في الواقع لسياسي والاجتماعي، بل والديني أيضا، نجد ان الخطباء، على اختلاف اتجاهاتهم، كانوا يهدفون، من خلال خطبهم، استمالة السامعين نحو سياستهم التي كانوا يؤمنون ها، سواء أكانوا من الزعماء الأمويين وأنصارهم، أم من زعماء الفرق المناوئة لهم، إذ ن كل واحد منهم كان يعتقد أن ما يراه هو الأصلح للناس، ومن ثم كان يحاول ستمالة الجمهور إلى صفه، وإقناعه بوجهة نظره، وتأليبه على من يخالفه. وفي سبيل هذه الاستمالة، كان الخطيب يوظف طاقاته التي يمكن أن يصل إليها فكره أو لسانه أو ذاكرته أوحتى يده؛ (ثقافته الدينية - معارفه التاريخية والاجتماعية والسياسية- محفوظاته العامة وخاصة الأدبية منها - بلاغته الإقناعية). ولذلك طبع هذا المجال الخطابي بعدة طوابع، تبعا لشخصية الخطيب وولائه ومكانته داخل الهرم السياسي.

ولقد كانت خطب الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة، رضوان الله عليهم، مطبوعة بطابع إسلامي صرف، حيث إن روح المسؤولية التي كان يشعر بها هؤلاء تجاه خالقهم ثم تجاه رعيتهم كانت تجعلهم لا يقولون إلا ما يفعلون. وبذلك جاءت خطبهم السياسية معبرة عن مواقفهم السياسية الراسخة. ويمكن القول إن مضمون الحديثين النبويين؛ "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" و"كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته"، كان الشعار لعامة خطب هذا العصر. وبتأملنا لأي نص من نصوص هذه الخطب سنجد ذلك واضحا، وخاصة في خطب الخلفاء الراشدين.

إن هذه الخطب التي كان يلقيها الخلفاء عند توليهم الخلافة، أو الولاة حينما يتولون ولاية إقليم معين، كانت بمثابة ملخص للبرنامج السياسي الذي سيسيرون عليه بعد أن يتولوا الأمر، ولذلك لم يخرج عن هذا الإطار السابق عامة الساسة الأمويين وزعمائهم، وخاصة أولئك الذين أخذوا على عاتقهم إصلاح ما أفسده غيرهم، فكان مضمون الحديث النبوي "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"، يتردد أيضا عندهم في خطبهم. لننظر مثلا إلى خطبة عمر بن عبد العزيز حينما آل إليه الأمر:

فلقد روي أن عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، لما دفن سليمان عبد الملك وخرج من قبره سمع للأرض رجة، فقال: ما هذا؟ فقيل: هذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين، قُربت إليك لتركبها، فقال مالي ولها؟ نحوها عني، قربوا إلي بغلتي. فقربت إليه فركبها. وجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة، فقال: تنح عني، مالي ولك؟ إنما أنا رجل من المسلمين، فسار وسار معه الناس، حتى دخل المسجد فصعد المنبر، واجتمع إليه الناس، فقال : "يا أيها الناس: إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير

رأي كان مني فيه، ولا طِلْبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت مالي في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم ".

فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك، فَلِ أمرنا باليمن والبركة. فلما رأى الأصوات قد هدأت ورضي به الناس جميعا، حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، وقال:

"أوصيكم بتقوى الله... وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل، ولا في نبيها ﷺ ولا في كتابها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم، وإنـــي والله لا أعطي أحدا باطلا، ولا أمنع أحدا حقا، إني لست بخازن، ولكني أضع حيث أمرت. أيها الناس: إنه كان قبلي ولاة تجترون مودتهم، بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم ..." [1].

وواضح أن خطبة الخليفة عمر بن عبد العزيز هذه هي من قبيل خطب الخلفاء الراشدين، من حيث المعاني السامية التي تضمنتها، في إقرار الحق ودفع الباطل، ونشر العدل، والحد من الظلم، وإرساء دعائم الشورى، ورفع مكانة الضعيف.

وعلى هذا النمط من القول سارت طائفة من الخطباء الأمويين، بمن فيهم أولئك الذين قادوا ثورات معينة، مثل يزيد بن الوليد الذي ثار على ابن عمه الوليد بن يزيد وقام خطيبا في الناس، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

[1] جمهرة خطب العرب، لأحمد زكي صفوت 2/ 203 ــ 204 .

"والله، أيها الناس، ما خرجت أشرا ولا بطرا، ولا حرصا على الدنيا، ولا رغبة في الملك، وما بي إطراء نفسي وإني لظلوم لها، ولقد خسرت إن لم يرحمني ربي ويغفر لي ذنبي، ولكني خرجت غضبا لله ولدينه، وداعيا إلى الله وسنة نبيه...

أيها الناس إن لكم علي أن لا أضع حجرا على حجر، ولا لبنة على لبنة... ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة أهله، بما يغنيهم، فإن فضل فضل نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه منه... ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم... فإن أنا وفيت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة والمكانفة، وإن أنا لم أوف لكم فلكم أن تخلعوني... وإن عرفتم أحدا يقوم مقامي ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيكم، فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من بايعه ودخل في طاعته". [1].

وواضح من خلال هاتين الخطبتين أن الجانب المالي حاضر بقوة، بسبب ما أفاء الله على المسلمين من خيرات بعد الفتوحات الإسلامية، ثم بسبب السياسة غير العادلة لبعض الولاة فيما يخص الجانب المالي، وهي سياسة كان يتخذها المعارضون وسيلة للطعن فيهم والانتقاص من مكانتهم. ثم قبل ذلك وبعده بسبب التحذير الرباني من اتخاذ الأموال وسيلة للقهر والتغلب، فتكون بذلك معبودة من دون الله. يقول تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾، وكذلك التحذير النبوي من اتخاذ الأموال وسيلة للاستبداد والبطش، ومدعاة إلى الركون إلى ملذات الحياة الدنيا، كما في قوله ﷺ: "فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا:

[1] البيان 2/ 141 ــ 142 .

كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتكم"[1].

ولذلك، فلقد كان عامة الزعماء الأمويين مدركين أن سياستهم قد ابتعدت عن النهج الراشد للخلافة، ولكنهم كانوا يعتقدون أنهم مكرهون لسلوك ما سلكوه، بسبب تغير أحوال الرعية ذاتها، وبسبب سوء المعتقد لدى عدد من المعارضين. ومن ثم كان العديد منهم يحاولون البحث عن علل لتبرير بعدهم عن نهج أسلافهم من الخلفاء الراشدين، معترفين بالخطأ والتقصير، ومنبهين إلى أن اللوم لا ينبغي أن يقع عليهم وحدهم. ولهذا وجدنا معاوية بن أبي سفيان يقول مثلا: "فاقبلونا بما فينا، فإن ما وراءنا شر لكم". ويقول عبد الملك بن مروان: "ألا تنصفوننا معشر الرعية تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولم تسيروا في أنفسكم ولا فينا سيرة رعية أبي بكر وعمر، أسأل الله أن يعين كلا على كل" [2].

وأما تلك الخطب الأخرى التي تترجم بطش بعض الولاة وظلمهم، مثل خطب الحجاج وزياد بن أبيه، وما ماثلها، فيمكن القول إنها لا تمثل القاعدة في السياسة الأموية، ولكنها استثناء، والاستثناء لا حكم له، كما يقال.

ب ـ مجال السياسة الحربية .

تعتبر الخطب الحربية من أبرز الخطب التي عرفها المسلمون، فلقد كانت ساحات المعارك تعج بالخطباء المفوهين من القادة والجند والوعاظ، حتى إن المعارك التي لا يحضرها الخطباء تؤدي إلى الهزيمة في الغالب، ومن يتصفح كتب المغازي يجد

[1] أخرجه البخاري وغيره. ورقمه في صحيح البخاري: 2921 .

[2] البيان 1/ 265 .

أصحابها قد دونوا العديد من الخطب التي تشهد على قوة المسلمين وعظمتهم وشجاعتهم وإقدامهم وبذل الغالي والنفيس في سبيل الله وإعلاء كلمته .

ورغم أن الخطابة الحربية عرفت منذ العصر الجاهلي، وأن الخطباء منذ القديم كانوا يشكلون دعما معنويا للمقاتلين بحثهم على الصبر وعدم الفرار، فإن هناك فرقا نوعيا وفنيا بين الخطابة الحربية في الجاهلية ونظيرتها في الإسلام. فلقد كان الخطيب في الجاهلية يحث الجندعلى الصبر وعدم الفرار حمية وعصبية وفخرا واعتزازا، بينما كان الخطيب في الإسلام يفعل ذلك امتثالا لأمر الله. لننظر إلى النصوص التالية:

ـ قال هانئ بن قبيصة لقومه يوم ذي قار وهو يحرضهم: "يا معشر بكر، هالك معذور، خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره. الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر، قاتلوا فما للمنايا من بد". [1].

وفي وقعة اليرموك، قام أحد الخطباء يحرض المسلمين قائلا: «يا أيها الناس، هذا يوم له ما بعده، وقد عاينتم قربه من بُعْده، ولن تنالوا الجنّة إلا بالصبر على المكاره، وتالله لن ينالها من هو للجهاد كاره. وأنشد :

ولله في عرض السماوات جنة *** ولكنها محفوفة بالمكاره

وأعلى الدرجات درجة الشهادة، فأرضوا عالم الغيب والشهادة. وهذا الجهاد قد قام على ساقه، وكسد النفاق في أسواقه، وأخفى نفاقه في نفاقه، وأنتم أصحاب نبي العصر، أفأيستم من الثبات والنصر؟...وإياكم أن تولوا الأدبار، فتستوجبوا عذاب النار، وغضب الجبار، فوالذي قدر الأقدار، وأدار الفلك الدوار، وكل شيء

[1] أمالي القالي 1/ 169 .

عنده بمقدار، لقد تزينت لكم الحور العين، بأيديهن أباريق وكأس من معين. فمن طلب دار البقا، هان عليه ما يلقى. فحققوا حملتكم، تنالوا بغيتكم. واطعنوا الصدور، تنالوا الحور. واشرعوا الأسنة، تنالوا الجنة، واغتنموا الصبر، يكتب لكم الأجر... سيروا فقد سبق المفردون، واجتهدوا فقد فاز المجتهدون. "يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون" [1].

ولعل الفرق واضح بين النصين شكلا ومضمونا، فمن حيث المضمون نجد أن روح الإيمان بالغيب حاضرة بقوة في الخطبة الإسلامية، سواء من حيث الخلفية المحركة للجهاد، أم من حيث الهدف من القتال، فالحرب لم تكن من أجل الحرب، وإنما من أجل إعلاء كلمة الله ونشر دينه، كما أن الإقدام والثبات في ساحة المعركة لم يكن رياء أو سمعة، وإنما من أجل الحصول على إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة. وهذا على عكس الخطبة الجاهلية التي لم تزد على تأكيد فضيلة الثبات والصبر، مقابل الفرار والهزيمة. كما أنه من ناحية الشكل هناك فرق أيضا، سواء على مستوى البناء أم على مستوى التعبير والحجاج. حيث نلاحظ في الخطبة الإسلامية تسلسلا للأفكار ووضوحا في المعاني، مع حضور شواهد من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، بينما لا نجد أي شيء من ذلك في الخطبة الجاهلية. هذا مع العلم أن صاحب الخطبة السالفة الذكر كان لا يتكلم إلا بالسجع حسب ما ذكره الواقدي، ولذلك نجد خطبته مسجوعة مثلها مثل الخطبة الجاهلية، لكن هناك فرق في نمط السجع وطبيعته. وعلى كل حال، فإن السجع لا ينتقص من قيمة الخطبة الحماسية والتحريضية، بل على العكس من ذلك؛ فطبيعة الحرب، وما يصاحبها من قعقعة

[1] فتوح الشام 1/ 219. واسم الخطيب نجم بن مفرح. وكان من خطباء العصر، وأفصح العرب لسانا، وأجرئها جنانا، وكان رفيع الصوت حسنه جدا، فقصده العرب والفصحاء يسمعون ما ينطق به من نظمه ونثره.

السيوف، وجلبة الخيل، والصياح ونحو ذلك، مما يخلق إيقاعات مختلفة، لا يناسبه – في تقديري– إلا إيقاع السجع، الذي له دوره الإضافي في التشجيع والتحميس.

لكن لا يعني هذا أن الخطب الحربية كلها مسجوعة، بل على العكس من ذلك، فلقد أورد الواقدي ذاته العديد من الخطب التي لا علاقة لها بالسجع؛ من ذلك خطبة رائع بن عمير الطائي، في معركة اليرموك، التي قال فيها: "يا أهل القرآن إلى أين تريدون؟ أما علمتم أن من ولى ظهره لعدوه فقد باء بغضب من الله ! وإن الجنة لها أبواب لا تفتح إلا للمجاهدين. الصبر الصبر، الجنة الجنة، كروا على الكفار عباد الصلبان، وهاأنا معكم في أوائلكم، فإن كان صاحبكم أسر أو قتل[1] فإن الله حي لا يموت، وهو يراكم بعينه التي لا تنام..."[2].

وفي المقابل نجد خطبا حربية تتضمن خططا عسكرية، أو أوامر حربية، يكون لها شأن كبير في الحسم العسكري، كما هو الحال في خطبة طارق بن زياد المشهورة، التي انتهت بفتح الأندلس، وخطبة أبي عبيدة بن الجراح التي خاطب بها الرماة في معركة اليرموك، حيث قال: "معاشر الرماة، الزموا مراكزكم، فإن رأيتم القوم زحفوا إلينا، فارشقوهم بالنبال، واذكروهم عند رميكم، ولا تتركوها مفرقة، ولتخرج سهامكم كأنها من كبد قوس واحدة. فإن هم زحفوا إليكم، فاثبتوا مكانكم حتى يأتيكم أمري"[3]. ومعلوم أن كلا المعركتين جاءتا بفتح عظيم للمسلمين.

وعلى كل حال، فإن ما نجده من نصوص خطابية حربية مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ والسير والتراجم، التي تتعدد كما، وتختلف كيفا، يدل دلالة كبيرة على ازدهار الخطابة الحربية في العصر الإسلامي وحضورها بقوة في ساحة المعارك.

[1] يشير إلى ضرار بن الأزور الذي أصيب في معركة حمص، وأسره النصارى، فولى المسلمون هاربين.

[2] فتوح الشام 1/ 24. طبعة شقرون بمصر

[3] المصدر السابق 1/ 132.

3 ـ المجال الاجتماعي :

نقصد بالمجال الاجتماعي، تلك المقامات والمحافل العامة، والتجمعات الشعبية، التي كانت الخطب تلقى فيها لغرض من الأغراض المتصلة بالحياة الاجتماعية، كالزواج، والمخاصمات القضائية، وإصلاح ذات البين، والتهنئة، والتأبين والتعزية، وغير ذلك من شؤون الحياة العامة، مع تأكيد أن الجانب الديني، المتجلي في استحضار عقيدة الإسلام وشرائعه، كان دائما حاضرا في كل هذه المجالات الخطابية. وسنحاول تقديم بعض النماذج التي تدل على حضور الخطابة في هذا المجال، لما لها من دور في التأثير في السامعين، حتى ليمكن القول؛ إن كل تجمع لطائفة من الناس كان يقتضي إلقاء خطبة ترتبط بالمناسبة. ومن المناسبات التي كانت تلقى فيها الخطب المناسبات التالية.

أ ـ مناسبات الإملاك :

وهي مناسبة عقد الزواج التي كانت تتطلب إلقاء أكثر من خطبة في الموضوع. ولقد عرف هذا النوع من الخطب سننا خاصة، سواء في شكل الخطبة أو في هيئة الخطيب. ففيما يخص شكل الخطبة ، فإن خطبة النكاح لها مقدمة خاصة، تختلف عن أنماط الخطابة الأخرى، وتكون طويلة من الخاطب وقصيرة من المجيب، وسبب ذلك كما، يقول الأصمعي، أنهم "كانوا يستحبون من الخاطب إلى الرجل حرمته الإطالة، لتدل على الرغبة. ومن المخطوب إليه الإيجاز، ليدل على الإجابة"[1]. كما أن الخطيب فيها يكون قاعدا لا قائما، حتى إذا ما قيل فلان يجيد الخطبة قاعدا كقائم، فإن المقصود بقاعد خطبة النكاح.

[1] انظر البيان 64/1. وزهر الآداب للحصري 2/ 31.

غير أن هذه السنة لم تكن ثابتة لدى جميع الخطباء الخاطبين إذ أننا نجد العديد من النصوص الخطابية مختصرة، سواء أكانت من جانب الخاطب أو من جانب المخطوب إليه، حتى إن بعض الرواة استغربوا الاختصار من جانب بعض الخطباء الخاطبين. "قال العتبي: زوج شبيب بن شيبة ابنه بنت سوار القاضي، فقلنا اليوم يعُبّ عُبابُه. فلما اجتمعوا، تكلم فقال: "الحمد لله، وصلى الله على رسول الله. أما بعد، فإن المعرفة منا ومنكم، بنا وبكم، تمنعنا من الإكثار. وإن فلانا ذكر فلانة"[1]. بل إن العتبي ذكر أنه حضر يوما خطبة لشخص خطب على نفسه امرأة، فلم يزد على أن قال:

وما حسن أن يمدح المرء نفسه *** ولكن أخلاقا تذم وتمدح

وإن فلانة ذكرت لي".

ولعله يبدو من خلال هذا أن خطب النكاح كانت تهدف إلى التعارف بين الطرفين، وتقريب وجهات النظر، وخاصة من جانب الخاطب. أما المخطوب إليه فتكون خطبته تعبيرا عن قبوله أو رفضه. ويكون القبول أحيانا، مصحوبا بنصائح للخاطب كما نجد في خطبة طريفة لعتبة ين أبي سفيان، حينما خطب إليه عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان ابنته، حيث إنه أقعده على فخذه، وكان حدثا، فقال: "أقْرب قريب، خطب أحب حبيب، لا أستطيع له ردا، ولا أجد من إسعافه بدا. قد زوجتكها وأنت أعز علي منها،وهي ألصق بقلبي منك، فأكرمها يعذب على لساني ذكرك،ولا تهنها فيصغر عندي قدرك. وقد قربتك مع قربك، فلا تبعد قلبي من قلبك"[2].

[1] انظر البيان 1/ 161. ولقد كان العتبي ينتظر من شبيب الإطالة، لأنه كان خطيبا مفوها، كما كان سوار من كبار خطباء البصرة وقضاتها.

[2] الجمهرة 3/ 345 ــ 346.

وإذا نظرنا إلى نصوص خطب النكاح، فإننا سنجد أنها كانت معروفة منذ العصر الجاهلي، ولعل أشهر خطبة وصلت إلينا في الموضوع خطبة أبي طالب في زواج الرسول ﷺ من السيدة خديجة رضي الله عنها حيث قال :"الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه، برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا. وإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعلي".

ومما روي في الرد على الخاطب، خطبة عامر بن بن الظرب العدواني، وكان حكيما خطيبا رئيسا -كما قال الجاحظ- حينما خطب إليه صعصعة بن معاوية ابنته، قال: "يا صعصعة إنك أتيتني تشتري مني كبدي، وأرحم ولدي عندي. غير أني أطلبتك أو رددتك، فالحسيب كفء الحسيب، والزوج الصالح أب بعد أب. وقد أنكحتك مخافة ألا أجد مثلك أفر من السر إلى العلانية. أنصح ابنا وأودع ضعيفا قويا. يا معشر عدوان، خرجت من بين أظهركم كريمتكم من غير رغبة ولا رهبة..." [1].

وقد طبعت خطب الإملاك بعد البعثة النبوية بطابع إسلامي واضح، أساسه أن النكاح يجمع بين الأنساب، ويقوي أواصر الأرحام، وأنه فطرة وسنة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل

[1] البيان 2/ 77 .

بينكم مودة ورحمة﴾. (الروم21)، وقوله عز وجل: ﴿وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا﴾. (الفرقان: 54).

وهذا ما نجده في عدد من الخطب كخطبة عمر بن عبد العزيز حينما خطب إليه محمد بن الوليد عتبة أخته، حيث قال: "الحمد لله رب العزة والكبرياء، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء. أما بعد فقد أحسن بك ظنا من أودعك حرمته، واختارك ولم يختر عليك، وقد زوجناك على ما في كتاب الله، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان" [1].

وأشهر خطبة في هذا الباب ، خطبة الرسول ﷺ في تزويج علي لفاطمة، رضي الله عنهما، حيث قال ﷺ : "الحمد لله المحمود بنعمه، المعبود بقدرته المطاع بسلطانه، المرهوب من عقابه، المرغوب فيما عنده، النافذ أمره في سماه وأرضه، الذي خلق الخلق بقدرته، وميزهم بحكمته، وأعزهم بدينه، وأكرمهم بمحمد نبيه. أما بعد فإن الله جعل المصاهرة نسبا لاحقا، وحقا واجبا، وفرضا لازما، وحكما عادلا وخيرا جامعا. وشج به الأرحام وألزمه الأنام، وفرق به الحلال والحرام، فقال جل ذكره: ﴿وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا، وكان ربك قديرا﴾، فأمر الله يجري إلى قضائه، وعلمه سائر على قدره، ولكل حكم أجل، ﴿ولكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾، ولأمر الله عز وجل العلو والنفاذ. وقد أنكحت فاطمة بنت محمد لعلي بن أبي طالب المشارك لها في نسبها، الرضا عند الله عز وجل

[1] المصدر السابق 1/ 104

وعند رسوله على المدة العادلة والسنة القائمة. فجمع الله شملهما وبارك لهما، وجعلهما مفاتح الرحمة وأمناء للأمة. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم"[1].

ولقد اكتسبت هذه الخطبة من بلاغة الرسول ﷺ مكانة خاصة، فجعلتها متميزة شكلا ومضمونا. مع العلم، أن الخطبة في مثل هذا المقام، كانت تتطلب جرأة ورباطة جأش وبلاغة أكثر من الخطب الأخرى، ولذلك كان العديد من الخطباء، على بلاغتهم ومكانتهم، يتهيبون هذا النوع من الخطب، حتى إن عمر بن الخطاب ﷺ قال: "ما يتصعدني شيء كما تتصعدني خطبة النكاح". ولقد علل ابن المقفع هذا القول بأنه: "ربما أراد قرب الوجوه من الوجوه، ونظر الحداق من قرب في أجواف الحداق. ولأنه إذا كان جالسا معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء فإذا خطب فيهم صاروا سوقة ورعية"، بينما علله آخرون بأن "الخطيب لا يجد بدا من تزكية الخاطب فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه، فيكون قد قال زورا وغر القوم من صاحبه". غير أن الجاحظ استبعد هذا التعليل قائلا: "ولعمري إن هذا التأويل يجوز إذا كان الخطيب موقوفا على الخطابة. فأما عمر بن الخطاب، رحمه الله، وأشباهه من الأئمة الراشدين فلم يكونوا ليتكلفوا ذلك إلا فيمن يستحق المدح"[2].

وربما لهذا السبب أيضا، كان الحسن البصري، رحمه الله، يردد خطبة واحدة في كل مناسبة، حيث كان يقول بعد حمد الله والثناء عليه: "أما بعد فإن الله جمع بهذا النكاح الأرحام المنقطعة والأنساب المتفرقة، وجعل ذلك في سنة من دينه، ومنهاج واضح من أمره، وقد خطب إليكم فلان، وعليه من الله نعمة".

---

[1] صناعة الكتاب254- 255. ولم أتمكن من معرفة مدى صحة نسبة الخطبة إلى الرسول ﷺ، وإن كان أسلوب الخطبة يثير الشكوك حول هذه النسبة.

[2] البيان 1/ 117 .

وكان الفضل بن عيسى الرقاشي من أخطب الناس وكان متكلما قاصا مجيدا ويجلس إليه الفقهاء فخطب إلى قوم من بني تميم، فخطب لنفسه، فلما فرغ قام أعرابي منهم فقال: "توسلت بحرمة، وأدليت بحق، واستندت إلى خير، ودعوت إلى سنة، ففرضك مقبول، وما سألت مبذول، وحاجتك مقضية إن شاء الله تعالى".

فقال الفضل: "لو كان الأعرابي حمد الله في أول كلامه وصلى على نبيه لفضحني يومئذ"[1].

ولم يكن الفضل يقصد من الافتضاح إلا الجانب البياني، مما يعني أنه، رغم مكانته الخطابية التي تحدث عنها الجاحظ، فإنه كان مقصرا مقارنة مع الأعرابي الذي رد عليه. وهذا يدل على ان فصاحة الأعراب في ذلك العصر كانت متميزة عن سائر الناس.

ومما يدل أيضا على صعوبة هذا النوع من الخطابة أن قريشا في الجاهلية على مكانتها البيانية، وفصاحتها اللغوية، كانت تردد نصا واحدا، وهو قولها: "باسمك اللهم ذكرت فلانة وفلان بها مشغوف، باسمك اللهم، لك ما سألت ولنا ما أعطيت" [2].

ب- مناسبات الخاصمات القضائية :

وهي المناسبات التي كان فيها المتخاصمون يدافعون فيها عن وجهة نظرهم أمام القاضي أو الحاكم أو الخصم. ولقد شجع على هذا النوع من الخطب استقلال

---

[1] البيان 73/4

[2] المصدر السابق 1/ 408 .

القضاء في الإسلام، وحرية المظلوم أو المتهم في الدفاع عن نفسه، أو توكيل من يراه أهلا لذلك .

وواضح أن إدراج المخاصمات القضائية ضمن الخطابة يعود إلى أن المتحدث في هذه المخاصمات، يحاول إقناع السامع ببراءته أو بوقع الظلم عليه. كما هو الحال في الحوار المشهور الذي دار بين خولة بنت ثعلبة حينما ظاهر منها زوجها، وبين الرسول ﷺ بعد أن رفعت أمرها إليه، وبينما كان الرسول ﷺ يقول لها: "أراك قد حرمت عليه، كانت هي تجتهد في الشكوى والدفاع عن نفسها وتقول: يارسول الله؛ أكل مالي وأفنى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولـــدي ظاهر مني -ثم تقول- أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي، وإن لي صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا. وجعلت ترفع يدها إلى السماء وتقول: اللهم أشكو إليك "[1]. وقد سمع الله تعالى شكواها، من فوق سبع سماوات، فأنزل في شأنها قرآنا يتلى كما هو معروف.

ويبدو أن النساء كان لهن دور لا يستهان به في هذا النوع من الخطب، حيث اشتهرن بالإجادة فيها. كما حدث لامرأة أبي الأسود الدؤلي حينما خاصمت زوجها في شأن ابن لهما أراد أن يأخذه منها كرها بعد طلاقها، فرفعت أمرها إلى زياد الذي كان واليا على البصرة، فقالت:

"أصلح الله الأمير، هذا ابني كان بطني وعاءه، وحجري فناءه، وثديي سقاءه، أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام، فلم أزل بذلك سبعة أعوام، حتى استوفى فصاله، وكملت خصاله، واستوكعت أوصاله، وأملت نفعه، ورجوت دفعه، أراد أن يأخذه مني كرها، فآدني أيها الأمير، فقد رام قهري وأراد قسري.

---

[1] انظر تفسير ابـــن كثير، وفتح القدير للشوكاني، في تفسيره أوائل سورة المجادلة.

فقال أبو الأسود:

أصلحك الله: هذا ابني، حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليـــه في أدبه، وأنظـــر في أوده، وأمنحـــه علمي، وألهمه حلمي، حتى يكمل عقله ويستحكم فتله.

فقالت المرأة:

صدق أصلحك الله، حمله خفا وحملته ثقلا، ووضعه شهوة ووضعته كرها.

فقال زياد:

اردد على المرأة ولدها فهي أحق به منك، ودعني من سجعك" [1].

وقد تكون بلاغة المرأة كافية لها عن الإتيان بالبينة، كما حدث لأم أرسل إليها ابنها مبلغا من المال، فرفض الرسول أن يدفع إليها المال حتى تكون معها البينة على أنها أمه. فلما اضطرت إلى الإتيان بمن يعرفها والكشف عن وجهها قالت: "الحمد لله، وأشكو إلى الله الذي أبرزني، وشهر بالفاقة أهلي". فلما سمع الرجل كلامها شهد بأنها أمه وأعفاها من البينة. [2].

ج ـ مناسبات إصلاح ذات البين :

وهي المناسبات التي كان فيها الخطباء يدعون إلى الإصلاح فيما بين الناس، سواء أكانوا أزواجا، أم أفرادا في مجتمع، أم جماعات متخاصمة أو متقاتلة. حيث كان الخطباء يدعون إلى نبذ الحرب وبيان ما فيها من دمار وإلى التصافي والتواصل ونبذ الأحقاد والتقاطع. ولقد بين الجاحظ أن هذا النوع من الخطب يستحب فيه التطويل لكن دون إملال السامعين. وذكر خبر قيس بن خارجة لما قيل له عما عنده في شأن

---

[1] أمالي القالي 12/2.

[2] البيان 100/2.

حمالة داحس والغبراء، قال: "عندي قرى كل نازل ورضى كل ساخط، وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب، آمر فيها بالتواصل وأنهى فيها عن التقاطع". قالوا فخطب يوما إلي الليل، فما أعاد فيها كلمة ولا معنى[1].

ولقد اكتسى هذا النوع من الخطابة مكانة خاصة بعد الإسلام في ضوء الأمر الرباني بوجوب الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق، والإصلاح فيما بين الناس أفرادا وعشائر وطوائف قال تعالى: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما"، إلى قوله تعالى: "إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم"(الحجرات 10/9). ولذلك وجدنا العديد من الخطباء يحاولون الإصلاح بين الناس على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم ومذاهبهم.

ومن خطب الرسول ﷺ في الموضوع، خطبته التي أصلح فيها بين الأوس والخزرج بعد أن حاول اليهود الوقيعة بينهم عن طريق تذكيرهم بيوم بعاث الذي كان في الجاهلية. فلما هاج الناس، وبلغ الخبر رسول الله ﷺ جاءهم وخاطبهم قائلا :

"يا معشر المسلمين، الله الله! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف بين قلوبكم..."[2].

د ـ مناسبات التأبين والتعزية والتهنئة :

مناسبة التأبين والتعزية هي: التي ترتبط بموت أحد الأشخاص، حيث تلقى خطب يدور موضوعها، في الغالب، حول ذكر مناقب الميت، وما خلفه فقده من

[1] المصدر السابق 117/1 .

[2] السيرة النبوية لابن هشام 147/2 .

الحزن والأسى، مع الدعاء له بالمغفرة والرحمة ولأهله بالصبر. وقد يلجأ الخطيب في مثل هذه المناسبة إلى وعظ الناس باعتبار أن الموت أكبر واعظ للإنسان كما ورد في الحديث النبوي .

ومن خطب التأبين خطبة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لما توفي أبوها أبو بكر رضي الله عنه حيث قامت على قبره وقالت :

"نضّر الله وجهك، وشكر لك صالح سعيك، فقد كنت للدنيا مذلا بإدبارك عنها، وللآخرة معزّا بإقبالك عليها، وإن كان لأجَلّ الأرزاء بعد رسول الله ﷺ رزؤك، ولأكبر المصائب فقدك. وإن كتاب الله ليعد بجميل العزاء عنك حسن العوض منك، فانتجز من الله موعوده فيك بالصبر عنك، واستخلصه بالاستغفار لك"[1].

ومن خطب التعزية ما قاله أحد الخطباء:

"إذا استوى المعزي والمعزى في النائبة استغني عن الإكثار في الوصف لموقع الرزية، وكان ظهوره يغني عن التنبيه إليه. وإنا لله وإنا إليه راجعون، إقرارا بالمسألة واعترافا بالمرجع إليه وتسليما لقضائه، ورضى لموقع أقداره. وأسأل الله أن يصلي على محمد صلاة متصلة بركاتها، وأن يوفقك لما يرضيه عنك قولا وفعلا حتى يكمل لك ثواب الصابرين المحسنين، وأجر المطيع المنتجز للوعد. فرحم الله الفقيد، وأحله منازل أوليائه الذين رضي سعيهم، وتطول بفضله عليهم، إنه ولي قدير"[2].

[1] ويبدو ان خطب النساء في التأبين والتعزية، كانت ذات شأن، كما هو حالهن في شعر الرثاء. فلقد روي أيضا أن صفية بنت هشام خطبت في تأبين الأحنف بن قيس فقالت: « لله درك من مُجنّ في جنن، ومدرج في كفن. إنا لله وإنا إليه راجعون. نسأل الله الذي فجعنا بموتك، وابتلانا بفقدك، أن يوسع لك في قبرك، وأن يغفر لك في حشرك، وأن يجعل سبيل الخير سبيلك».

[2] صناعة الكتاب 288.

وحينما يكون الفقيد خليفة نجد الخطباء يحاولون الجمع بين التعزية والتهنئة، أو الدعوة للبيعة. كما في خطبة غيلان الثقفي التي تعتبر من أحسن الخطب التي جمعت بين التهنئة والتعزية. ذلك انه لما توفي عبد الملك بن مروان وجلس ابنه الوليد، قام غيلان خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "يا أمير المؤمنين، أصبحت قد رزيت خير الآباء، وسميت بخير الأسماء، وأعطيت أفضل الأشياء، فعظم الله لك على الرزية الصبر، وأعطاك في ذلك نوافل الأجر، وأعانك على حسن الولاية والشكر. ثم قضى لعبد الملك بخير القضية، وأنزله بأفضل المنازل المرضية، وأعانك من بعده على الرعية "[1].

وقد يكون التأبين أو التعزية مناسبة للوعظ، كما نجد في قول عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، حينما توفي ابنه عبد الملك، حيث قال: "الحمد لله الذي جعل الموت حتما واجبا على خلقه. ثم سوى فيه بينهم فقال: "كل نفس ذائقة الموت". فليعلم ذووا النهى أنهم صائرون إلى قبورهم بأعمالهم، واعلموا أن عند الله مسألة فاحصة، فقال جل وعز: "فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون".[2].

4 ـ مجالات أخرى:

بالإضافة إلى المجالات الثلاثة السابقة، هناك مجالات أخرى يمكن أن تعتبر ذات صلة بالخطابة، من حيث الموضوع أومن حيث الشكل، أو من حيث الجانبين معا. وتعتبر المناظرات والمحاورات وكذا الوصايا من قبيل الخطب، لاعتماد كل هذه الأجناس الفنية الحجج والأدلة، وتوخيها الإقناع والتأثير في السامع. ولقد جمع الجاحظ في نص طريف بين الخطابة والمناظرة، مبينا أهمية الفصاحة والبيان في التأثير في

[1] البيان 192/2.

[2] التعازي والمراثي للمبرد ص 46 ــ 47.

السامع، وأن مقام البلاغة في الخطابة والمناظرة أعلى وأسمى من كل المقامات الأخرى، فقال: "وليس – حفظك الله – مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة، وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة، بأعظم مما يحدث عن العي من اختلال الحجة، وعن الحَصَر من فوت درك الحاجة... والناس لا يعيرون الخرس، ولايلومون من استولى على بيانه العجز. وهم يذمون الحصِر ويؤنبون العيي، فإن تكلفا مع ذلك مقامات الخطباء وتعاطيا مناظرة البلغاء، تضاعف عليهما الذم، وترادف عليهما التأنيب..."[1].

وتختلف المناظرات في موضوعاتها تبعا للمقام الذي يدفع المتناظرين إلى التناظر، فقد تكون مرتبطة بالعقيدة أو المذهب أو قضايا الإمامة والخلافة أو أمور اجتماعية. ولذلك فإن خطب المناظرات قد تكون دينية أو سياسية أو اجتماعية، كما أن الوصايا قد تختلف موضوعاتها حسب ما يتطلبه المقام.

ولقد ازدهرت المناظرات الدينية أساسا بين الفرق الإسلامية والمذاهب الكلامية حيث كانوا يخوضون في قضايا كلامية ترتبط بصفات الله تعالى وبالقضاء والقدر والجزاء، كما كانت هناك مناظرات بين أطراف أخرى لا تمثل مذاهب معينة، وخاصة حينما يتعلق الأمر بمناظرة بين مسلم وكافر، أو بين مسلم ومرتد. وتحفل كتب التاريخ والمغازي والفتوح نماذج متعددة من هذا النوع من المناظرات وهي مناظرات كانت تدور في ساحات المعارك بين الأطراف المتحاربة قبل سل السيوف، فلقد كان هدف المسلمين هو نشر الإسلام في أوساط الشعوب المختلفة، ولم يكونوا يلجأون إلى الحرب إلا بعد أن تستنفد الكلمة دورها. مثال ذلك ما دار في غزوة اليرموك من محاورات بين المسلمين وبين عدة أطراف أخرى نصرانية عربية ورومية. كتلك التي دارت بين خالد بن الوليد وبين ماهان أحد قادة جيش الروم[2]، وتلك

[1] المصدر السابق 12/1

[2] فتوح الشام ص 186-189.

التي دارت بين جابر بن عبد الله الأنصاري وبين جبلة بن الأيهم من نصارى العرب فلقد قال جابر: "...إن ديننا لا يقوم إلا بالحق والنصيحة، وإن النصيحة لك منا واجبة لأنك ذو قرابة ورحم، وقد أتينا إليك ندعوك إلى دين الإسلام وتكون من أهل ملتنا، ويكون لك ما لنا وعليك ما علينا..." فرد عليه جبلة : "ما أحب ذلك ولا غيره إنني ضنين بديني، وأنتم رضيتم لأنفسكم أمرا ونحن رضينا لأنفسنا أمرا..."[1].

وفي المقابل ازدهرت أيضا المناظرات السياسية التي دارت بين أطراف مختلفة، سواء في عصر الخلفاء الراشدين أو في العصور التي تلته. وبما أن أمور المسلمين في الأصل شورى بينهم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾، فلقد عرفت أمور السياسة ألوانا من المناظرات والمشاورات بين مختلف الأطراف أفرادا وجماعات، رعاة ورعايا، سلطة ومعارضة. ولقد دارت تلك المناظرات أساسا حول قضايا الإمامة وما يتصل بها.

وإذا ما تتبعنا المقامات التي دفعت إلى هذه المناظرات، فإنه من الناحية التاريخية يمكن اعتبار خطب السقيفة صورة مبكرة لهذه المناظرات، فلقد تحدث في هذا المقام أبو بكر وعمر بن الخطاب باسم المهاجرين، وتحدث سعد بن عبادة والحباب بن المنذر باسم الأنصار. وكان كل طرف يحاول إقناع الطرف الآخر بأحقيته بخلافة الرسول ﷺ. كما أن الخطب التي تداولها كل من عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف، رضوان الله عليهم، في أهل الشورى بعد مقتل الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ يمكن أن يدخل في هذا الإطار أيضا. كما عرف يوم الدار نموذجا آخر من هذه الخطب حينما تبادل عثمان بن عفان ﷺ والناقمون عليه أقوالا وخطبا. وكما هو الشأن في أنواع الخطابة الأخرى عرف هذا الفن تطورا ملحوظا بعد مقتل

[1] المصدر السابق ص 17 .

عثمان ﷺ، وما تلا ذلك من تصدع في صف المجتمع الإسلامي خاصة بعد موقعة صفين التي نتج عنها ظهور عدد من الفرق الإسلامية، كانت كل واحدة منها ترى أن الحق معها وتحاول إقناع الأطراف الأخرى بما تراه. لكن مع ذلك لم تعدم هذه المناظرات وجود محاورين مخلصين ممن كانوا يبحثون عن الحقيقة وجمع كلمة المسلمين والاعتصام بحبل الله والابتعاد عن التشرذم والتفرقة، كما هو حال عمر بن عبد العزيز في مناظرته للخوارج.

جاء في الكامل لابن الأثير، وغيره من المصادر ما يلي: "خرج سنة مائة بالجزيرة شوذب الخارجي - واسمه بسطام من بني يشكر- فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: بلغني أنك خرجت غضبا لله ورسوله، ولست أولى بذلك مني فهلم إلي أناظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك ، نظرنا في أمرك. فكتب بسطام إلى عمر: قد أنصفت، وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك. وأرسل إلى عمر مولى لبني شيبان حبشيا اسمه عاصم، ورجلا من بني يشكر. فقدما على عمر بخناصرة. فأُخبر بمكانهما، فقال: فتشوهما لا يكن معهما حديد وأدخلوهما. فلما دخلا، قالا: السلام عليك. ثم جلسا، فقال لهما عمر: أخبراني ما الذي أخرجكم مخرجكم هذا؟ وما نقمتم علينا؟ فقال عاصم: ما نقمنا سيرتك، إنك لتتحرى العدل والإحسان، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر، أعن رضى من الناس ومشورة، أم ابتززتم أمرهم؟ فقال عمر: ما سألتهم الولاية عليهم، ولا غلبتهم عليها، وعهد إلي رجل كان قبلي، فقمت ولم ينكره علي أحد، ولم يكرهه غيركم، وأنتم ترون الرضى بكل من عدل وأنصف، من كان من الناس، فاتركوني ذلك الرجل، فإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم، فقالا: بيننا وبينك أمر، إن أنت أعطيتناه فنحن منك وأنت منا، وإن منعتناه فلست منا ولسنا منك. فقال عمر: وما هو؟ قالا: رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك، وسميتها مظالم، وسلكت غير سبيلهم، فإن

زعمت أنك على هدى وهم على ضلال، فالعنهم وتبرأ منهم، فهذا الذي يجمع بيننا وبينك أو يفرق. فتكلم عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا ومتاعها، ولكنكم أردتم الآخرة، فأخطأتم سبيلها. إن الله عز وجل لم يبعث رسوله لعانا. وقال إبراهيم: "فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم". وقال الله عز وجل: "أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده". وقد سميت أعمالهم مظالم، وكفى بذلك ذما ونقصا، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لابد منها، فإن قلتم إنها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون؟ قال: لا أذكر متى لعنته. قال: أفيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم، ولا يسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون؟ قال: أما هم كفار بظلمهم؟ قال: لا، لأن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى الإيمان، فكان من أقر به وبشرائعه قبل منه، فإن أحدث حدثا أقيم عليه الحد، فقال الخارجي: إن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده. قال عمر: فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله ﷺ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم، على علم منهم أنه محرم عليهم، ولكن غلب عليهم الشقاء. قال عاصم: فابرأ ممن خالف عملك، ورد أحكامهم. قال عمر: أخبراني عن أبي بكر وعمر: أليسا من أسلافكما وممن تتوليان، وتشهدان لهما بالنجاة ؟ قالا: اللهم نعم. قال: فهل علمتما أن أبا بكر حين قبض رسول الله ﷺ فارتدت العرب، قاتلهم فسفك الدماء، وأخذ الأموال، وسبى الذرارى؟ قالا: نعم. قال: فهل علمتم أن عمر قام بعد أبي بكر، فرد تلك السبايا إلى عشائرها بفدية؟ قالا: نعم. قال: فهل برئ عمر من أبي بكر، أو تبرءون أنتم من أحد منهما؟ قالا: لا. قال: فأخبراني عن أهل النهروان؟ أليسوا من صالحي أسلافكم وممن تشهدون لهم بالنجاة؟ قالا: بلى. قال: فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفوا أيديهم فلم يسفكوا دما، ولم يخيفوا آمنا، ولم يأخذوا مالا؟ قالا: نعم. قال: فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع

مِسعر بن فُديك، استعرضوا الناس يقتلونهم، ولقوا عبد الله بن خباب بن الأرت: صاحب رسول الله ﷺ فقتلوه وقتلوا جاريته؟ ثم صبحوا حيا من أحياء العرب فاستعرضوهم، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا يلقون الصبيان في قدور الإقط وهي تفور؟ قالا: قد كان ذلك . قال: فهل برئ أهل البصرة من أهل الكوفة، وأهل الكوفة من أهل البصرة؟ قالا: لا. قال: فهل تبرءون أنتم من إحدى الطائفتين؟ قالا: لا. قال أرأيتم الدين واحدا أم اثنين؟ قالا: بل واحدا. قال: فهل يسعكم فيه شيء يعجز عني؟ قالا: لا. قال: فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر، وتولى أحدهما صاحبه، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة، وتولى بعضهم بعضا، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء، في الدماء والفروج والأموال، ولا يسعني فيما زعمتم إلا لعن أهل بيتي والتبرؤ منهم؟ ويحكم! إنكم قوم جهال، أردتم أمرا فأخطأتموه، فأنتم تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله ﷺ ويأمن عندكم من خاف عنده، ويخاف عندكم من أمن عنده. قالا: ما نحن كذلك. قال عمر: قال بل سوف تقرون بذلك الآن. هل تعلمون أن رسول الله ﷺ بُعث إلى الناس وهم عبدة أوثان، فدعاهم إلى خلع الأوثان، وشهادة أن لا إلـــه إلا الله وأن محمدا رسول الله، فمن فعل ذلك حقن دمه، وأحرز ماله، ووجبت حرمته، وكان له أسوة المسلمين؟ قالا: نعم. قال: أفلستم أنتم تلقون من يخلع الأوثان ويشهد أن لا إلـــه إلا الله وأن محمدا رسول الله، فتستحلون دمه وماله، وتلقون من ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرمون دمه؟ فقال اليشكري: "أرأيت رجلا ولي قوما وأموالهم فعدل فيها، ثم صيرها بعد ذلك إلى رجل غير مأمون، أتراه أدى الحق الذي يلزمه الله عز وجل؟ أوتراه قد سلم؟ قال عمر: لا. قال: أفتسلّم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق؟ قال: إنما ولاه غيري، والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي. قال: أفترى ذلك من صُنْع من ولاه حقا؟ فبكى عمر، وقال: أنظراني ثلاثا.